في المدينة ...

قصة بقلم عبد الجبار السحيمي

ذهبت حبيبتي ، اعطتني قبلة ، وابتسمت ، ثم اختفت وراء بـــاب كبير ، واختفى كـل شيء !

الشمس تموت في السماء ، شاحبة ، كما كان وجه ابي شاحبا وهـو يموت ، قولي وصيتك ايتها الشمس ، كما قالها ابي قبل ان يموت .
انا احفظ وصيته ، رايت في عينيه صورة كبيرة لامي ، واخواتـي الصغيرات ، ثم قال لي : ارعهم انت بعدي .

ولم يوص بي احدا ليرعاني ثم مـات .
ورايت في وجه الشمس الشاحب ملايين الناس ، كالنمل ، وقالت الشمس :
ـ ارعهـم انـت
ولم اكن انا هناك بين الملايين ، ثم ماتت ...

دخلت المدينة ، على شفتي طعم قبلة ، ثم نزلت بضعة قطـــرات من الدموع فمسحت الطعم على شفتي .

لم يسألني احد لماذا ابكي ، فهم لايعرفون ان الشمس قد ماتت ، ولم توص بي احـــدا .

طرقت خطواتي ارض المدينة الصامتة ، كان الناس يدخلون بيوتهـم، كل الناس ، وعيناي ترقبان وجوههم ، كلها وجوه اعرفها ، رايتها قبـل ان تمـوت الشمس .

التقت عيناي بهم ، ابتسمت ، لم يبتسم واحد منهم ، كانوا يسرعون الى بيوتهم ، لم يروني ، لم يعرفوني ، اوقفت بعضهم ، وعندما فتحت فمي لاتحدث ، ذهبوا جميعا ، قبل ان تمطر السماء .

بحثت في جيبي عن علبة السجاير ، ثم اشعلت واحدة ، وكان الليل قد ولد تماما ، وظلت قدماي تقربان ارض الشارع في المدينة الكبيرة الصامتة ، والوجوه تمر بي سريعة ، دون ان تقف ، دون ان تـــرد على ابتسامتي .

اوقفت طفلا صغيرا وسألته :
ـ لقد ولد الليل ، لماذا انت هنا ، هل مات ابوك ، هل رايت الشمس قبـل ان تمـ ....
ولكنه ضربني بحذائه ومضى مسرعا .

اوقفت رجلا في الطريق ، كان وجهه شاحبا كوجه ابي ، ومددت لـه سيجارة ، تركها في يدي ومضى ، فاسرعت وراءه ، وقلت :
ـ سوف تموت ، هل تقول وصيتك الان ؟

كما لو انه لم يسمع كلماتي واصل طريقه الطويل ، واخذت اضرب الارض بقدمـي ..
كنت اسير وحدي في الليل ، وقد اضاءت الشارع بضعة مصابيح ، وحولي الفـراغ والصمت .
فجاة ، خرج من الازبال قار كبير ، وحدق في عيني ، فابتسمت له، ولكنه لـم يجب ، قلت :
ـ اهلا ياصديق الليل !
فحرك اذنيه بعنف ، وعاد الى قمامة الازبال .
المدينة فارغة تماما ، صامتة في الليل ، والناس الذين مروا بـــي لم يردوا ابتساماتي ، لم يعرفوني ايضا ...
لمـاذا ذهبت حبيبتي ، لماذا تركتها تذهب ؟
لقد اختفت وراء الباب الكبير ، اختفت تماما ، ولن اراها بعد ، فسوف تتزوج في الصبـاح .

لم تكن بي حاجة لان اعود الى البيت ، لقد نامت امي ، واخواتـي الصغيـرات .

وانا ابحث الان في الليل عن ابناء الشمس لارعاهم كما اوصتنـي قبـل ان تمـــوت .

وصلت الى المقهى الفارغ ، وجلست متعبـا .
ابتسمت « للجرسون » فذهب ، ثم عاد يحمل سائلا اسود ، وضعه امامي ، ومعه ورقة صغيرة عليها الثمن .

اشعلت سيجارة اخرى ، ورحت افكر في المدينة الكبيـرة التـــي لايبتسم اهلوها ، لا يعرفون احدا ، لا يتحدثون .

ومن الساعة المعلقة عند طرفي الشارع انطلقت دقات كثيرة ، مائـة، مائتان ، الف ، كانت الساعة تحسب عمر الزمان ، عمر الصمت والحزن في المدينـة .

انطفات السيجارة فاشعلتها من جديد ، ورفعت الكاس الى فمي .
من بعيد كان طيف ما يقترب ، بصمت ، وانا ارقبه ..

كان ماسح احذية يحمل مصنعه الصغير ، دنياه الفارغة ، وابتسمت فقد حسبت انني التقيت اخيرا ، واحدا من الناس ، يبتسم لي ويتحدث وارعاه كما تريد الشمس و ...

وعندما راني ابتسم ، استدار ، واخذ يجري ... يجري !
حدقت في ثيابي ، لم تكن ثياب رجال البوليس فيخاف الصغير .
وقف امامي « الجارسون » ، وعند ما وضعت في يده الثمن ، كـان مايزال شاحبا ، قلت له :
ـ انت ستموت قل وصيتك ..
رفع يده ، كما لو كان سيضربني بها ، ووضعت علبة الكبريت فـي جيبي ، ثم ذهبت ...
الليل ينمو ، والساعة تحسب عمر الزمان ، والناس موتى ، المدينة كلها ميتة ، ولكنها لم تقـل وصيتها بعد !
في شارع قريب من البيت ، رايت فتاة صغيرة لم تجد رجلا فـــي المدينة .
اخذتها من يدها ، وحاولت ان تمانع ، ولكنني افهمتها ان الشمس هي التي ارادت ذلك . فقد اوصتني بها قبل ان تموت .
قالت : اين ؟؟
فتحت لها الباب ، ودخلنا الغرفة الصغيرة .
كانت امي نائمة ، واخواتي الصغيرات ، وابتسمت لها .
ـ هل اوصتك الشمس ان تبتسم لي ؟
اطفات مصباح الكهرباء في الغرفة ، ومن ثقوب الباب رايت الليل يموت ، فلم اسأله وصيته !!

الرباط ـ المغرب — عبد الجبار السحيمي